مجلة المرابط

العدد : ١٨٦ الموافق في شـــعبان ١٤١٧ هجري ١ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : الحق أحق أن يتبع –١–	بقلم : د. موفق الحكيم

من المتفق عليه عند علماء المسلمين أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله تعالى قد حفظه لنا وأبعد عنه يد التحريف والتأويل ، ومن المتفق عليه أيضاً عند أئمة المسلمين أن رسل الله جميعاً معصومون من الخطأ ، وينقلون رسالات الله كما أنزلها عليهم من غير إضافة أو نقصان ، أو تعديل أو تحريف { **سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله** } [الأعلى:٦] ، { **وما ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلا وحي يوحى** } [النجم:٣-٤] ، { **ولو تقول علينا بعض الأقاويل ۞ لأخذنا منه باليمن ۞ ثم لقطعنا منه الوتين** } [الحاقة: ٤٤- ٤٦] ، وكذلك فإن الخطأ قد رفع عن الأمة المحمدية في الذي حصل عليه اتفاق وإجماع من الأئمة المسلمين ، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى [جزء ٢٠ /١٦٤] : « فدين الله مبني على اتباع كتاب الله ، وسنة نبيه ، وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي المعصومة ، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول ». أما غير الرسول من الناس فليس معصوماً من الخطأ ، أو النسيان ، يؤخذ من قوله ، ويرد عليه ، ويقبل منه الصواب ويترك الخطأ ، يتمم منه النقصان ، ويعدل الميلان. وقد بلغ من حرص الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين على بيان هذا الأمر ما لا يترك مجالاً للشك ، أو للريبة أو عدم اليقين ؛ فها هو أول الخلفاء الراشدين أبو بكر ﷺ ، في أول خطبة يخطبها الناس بعد انتخابه خليفة لرسول الله ﷺ ، يقول : « إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ». ويقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود : « ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً ، إن آمن آمن ، وإن كفر كفر ، فإن كنتم مقتدين فبالميت ، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة ». وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن مسألة فأجابه فيها بحديث ، فقال الرجل : قال أبو بكر وعمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر !!.

وقد نبه أئمة المذاهب الأربعة إلى أهمية هذا الموضوع وخطورته ، وبينوا أنهم بشر يخطئون ويصيبون في اجتهادهم ، ونبهوا أتباعهم ومن جاء بعدهم إلى أن كل ما يتعارض من أقوالهم وأفعالهم مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فعلى الناس ترك الأخذ به وعدم العمل به. يقول الإمام مالك رحمه الله : « إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ». والإمام أبو حنيفة ﷺ يقول : « هذا رأيي ، وهذا أحسن ما رأيت ، فمن

جاء برأي خير منه قبلناه ». والإمام الشافعي ﷺ يقول : « لقد ألفت هذه الكتب ولم آلو فيها - أي لم أقصر في بحث ولا جهد - ولا بد أن يوجد فيها الخطأ ، لأن الله تعالى يقول { **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** } ، فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه ».

وبعد أن عرضنا لكل هذه الأمثلة ، وبينا ما يناسبها من الأدلة ، نجد أنه يوجد هناك للأسف ناس ينظرون إلى مشايخهم وعلمائهم نظرة التقديس والتعظيم ، يرفعون كلامهم إلى مستوى كلام الخالق ، ويتبعون أوامرهم ، ويقتدون بهداهم من غير نقد ولا تصويب ، بل هم مستسلمون لهم استسلاماً كاملاً ، منقادون لهم انقياداً تاماً ، هم في نظر هؤلاء المريدين مبرؤون من كل عيب ، وفوق كل نقد ، الحق يخرج من أفواههم ، والقول ما قالته ألسنتهم ، والسنة الصحيحة قد تجلت في أعمالهم ، يُكفرون من خطَّأهم ، ويحاربون من نقدهم.

إن هذا الانحراف الشديد في التفكير الذي ابتلي به للأسف بعض المسلمين له أسباب عديدة ، وينجم عنه آثار سلبية ، وإن أهم أسباب هذا الانحراف :

١- سوء التوجيه
٢- العصبية الحزبية
٣- عدم الإلمام الوافي والكافي بتعاليم الدين
٤- اتباع الهوى

١- سوء التوجيه :

إن بعض العلماء والمشايخ يحيطون أنفسهم بهالة من القدسية والتعظيم ، ويظنون أنهم حازوا قصب السبق ، فيمن سبق وممن لحق ، وأن الناس قد ساروا بسيرتهم شرقاً وغرباً ، وغوراً ونجداً ، ويوجهون الأتباع والمريدين توجيهاً بحيث يظن معه المريد أو يعتقد تمام الاعتقاد ، بأن ما يصفه له الشيخ بعقله فهو له قدوة ، وما يفعله يصير حجة ، وأن الشيخ يُحسّن ما شاء فيحْسن ، ويُقبّح ما شاء فيقْبح ، انتهى العلم إليه فلا يؤخذ إلا من علمه ، ووصل غاية الإحسان فيقتدى بسيرته ، وأن عنده وحده فقط ما يشفي علته ، وينقع غلته ، والويل كل الويل لمن يتعرض له ، والثبور كل الثبور لمن لا يهتدي به.

وقد يتغاضى هؤلاء الأتباع والمريدون عن كل شيء ، ويغفرون كل شيء ، إلا إذا تعرض عالمهم أو شيخهم لنقد أو تصويب أو تصحيح ، فإنهم عندئذ يواجهون المنتقد - ولو كان على حق - بكل أنواع الشتم والسباب والهجاء ، ولربما وصل بهم الأمر إلى الضرب والإيذاء ، وقد يُتعرض للذات الإلهية - معاذ الله - في بعض المجالس من قبل بعض الفساق أو العصاة أو الكفرة ، فلا يرتكسون ، ولكنهم قد ينقلبون أسوداً أو نسوراً ، ينهشون لحم ، ويدقون عظم من يتعرض لذات الشيخ أو مكانته العلمية ، ولقد سمعت من أستاذ عظيم قصة لها مغزاها البعيد ، يتحدث بها عن أولئك المتعصبين عن عمىً لمشايخهم ، وموجزها أنه تنازع أحد هؤلاء المتعصبين يوماً مع آخر متأثر بفكر دخيل ، فسب هذا الآخر الله عز وجل فسكت المتعصب ، فعاد ثانية وسب الرسول ﷺ فسكت المتعصب ثانية ، فعاد ثالثة وسب شيخه وهنا استشاط المتعصب غضباً ، وقال والشرر يتطاير من عينيه : سببت الله فسكت ، وسببت الرسول فسكت ، أما أن تتطاول وتتعدى وتسب شيخي فهذا ما لا أرضاه أبداً !!!... نعود بالله من هذا الانحراف الفظيع ، وسوء التوجيه الشنيع.

نعم ، إنه من الانحراف الكبير أن نجعل لكلام الناس صفة عصمة كتاب الله ، ونعتبر كلامهم وأحكامهم كأنها نصوص قرآنية أو نبوية شريفة. يقول الأستاذ الحبيب عصام العطار حفظه الله : « أن نرفع كلام المخلوق إلى مستوى كلام الخالق في التسليم والتعظيم والطاعة المطلقة شرك نبرأ إلى الله منه ، وسخف نربأ بأنفسنا عن الانحطاط إليه ، مهما بلغ أصحاب هذا الكلام في أنفسنا ، واستأهلوا عندنا من المحبة والثقة والتقدير ». ويقول الأستاذ عمر عبيد حسنة في كتاب نظرات في مسيرة العمل الإسلامي : « هناك حقيقة على غاية من الأهمية ، كانت ولا تزال معلمة من معالم التفكير الإسلامي والثقافة الإسلامية ، وكانت دائماً ملازمة للحياة الإسلامية ليصح التصور وينضبط السلوك ، وهي أنه لا يجوز أن يعتمد أحد كائناً من كان معياراً للحق ، أو أن يظن أنه أعلى من أن يناله أحد بالنقد أو يجد فيه مأخذاً ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يخضع لآخر عقلياً أو فكرياً إلا لرسول الله ﷺ ، الذي قال الله فيه : { **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ».

وإذا رجعنا إلى السيرة النبوية الشريفة ، وأخبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فإننا نلمس هذا التحفظ الكبير لديهم عند اجتهادهم في أمر ما ، أو عند إصدارهم أحكاماً أو فتاوى معينة ، بحيث أنهم لا يربطونها بحكم الله إذا كان هذا الاجتهاد شخصياً ، لم يجدوا فيه نصاً واضحاً من الكتاب والسنة ، جاء في كتاب « أعلام الموقعين » للإمام العظيم ابن القيم رحمه الله : « نهى رسول الله ﷺ في الحديث

الصحيح أميره - بريدة - أن يُنزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله. وقال : فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » ويعقب الإمام ابن القيم على ذلك ويقول رحمه الله : « فتأمل كيف فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد ». وقريب من هذا قصة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ، لما كتب الكاتب بين يديه حكماً حكم به ، فقال الكاتب : هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر ، فقال له : لا تقل هكذا ، ولكن قل هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر.

نعم ، يجب على العلماء والدعاة وأمراء الجماعات أن يبينوا لأتباعهم ومريديهم أنهم بشر يصيبون ويخطئون ، وأن الحكم الذي يصدر عنهم باجتهادهم ، إن لم يعتمد على نص ثابت قطعي الدلالة من القرآن والسنة ، فإنه قابل للخطأ والصواب ، وأنه ليس كما يقول البعض « حكم الله » و « شرع الله » و « أمر الله » ، بل إنه اجتهاد قابل للتصويب أو التعديل ، وأنه لا يوجد إنسان مبرأ من كل عيب وفوق كل نقد. يقول الأستاذ الحبيب عصام العطار : « انظروا إلى أقوالنا وأعمالنا بعين واعية ناقدة ، فتداركوا النقص ، وصححوا الخطأ ، فذلك حق لله وللناس وضرورة للسلامة والتقدم ، وهو أفضل هدية وأكرم يد تسدونها إلينا في الحياة وبعد الممات ». ويقول الداعية بديع الزمان سعيد النورسي لأتباعه وتلاميذه : « إياكم أن تربطوا الحق الذي أدعوكم إليه بشخصي المذنب الفاني ، ولكن عليكم أن تبادروا فتربطوه بينبوعه المقدس : كتاب الله وسنة نبيه... ولتعلموا أنني إنسان غير معصوم قد يظهر مني ذنب أو يبدر مني انحراف ، فيتشوه مظهر الحق الذي ربطتموه بي بذلك الذنب والانحراف ، فإما أن أكون بذلك قدوة للناس في الانحراف وارتكاب الآثام أو صارفاً لهم عن الحق بما شوهه واختلط به من انحرافي وآثامي ».

إنّ داهية الدواهي ومن أكبر الجرائم في حق الإسلام والمسلمين أن نحبس الإسلام في فهم رجل واحد ، يمكن أن يصيب أو يخطئ ، ويمكن أن يقوى ويضعف ، ويمكن أن ينحرف بعد استقامة ، ويمكن أن تميل به الأهواء ، أو تغلبه الشهوات ، أو تصرعه اللذات ، أو يصبح أسيراً للشبهات ، وإنه من الجرم أيضاً أن يتحول تقديس الفكرة والمبدأ إلى تقديس الأشخاص ، ويصبح الإنسان الذي نقدسه هو مقياس الحق ، وهذا ينطبق على رجال كل العصور والدهور وفي كل مكان.

❁ ❁ ❁

للبحث صلة